

المقالة الثانية^١

توبيخ لذاته واعتراف

يا إخوتي تأملوا معي وليكن لكم تحنن ورأفات ، فإنه ما قال الكتاب الإلهي باطلاً : " أن الأخ الذي يعينه أخوه يكون كمدينة حصينة شاهقة لأنه يقدر كاقترار المملكة المتوتدة " .
ويقول أيضاً : " ليعترف بعضكم لبعض بالخطايا ، وليصلى بعضكم لبعض لتشفوا " .
اقبلوا أيها المختارون من الله وسيلة ممن عاهد أن يرضى الله فكذب على خالقه ، لكى ما بطلتكم أنجوا من الخطايا المطيفة بي فأصير معافى وأنهض من سرير الخطية المفسدة فإنى منذ طفولتى صرت إناءً طالحاً ومرفوضاً والآن إذ أسمع بالدينونة أتهاون .
بما أن لى خطايا وجرائم تفوق العظم وأعظ آخرين أن يبتعدوا من الأشياء التى لا تنفع وتلك الأشياء تكمل منى مضاعفة .

ويلى فى أى يأس قد وقعت ، ويلى فى أى خزى قد حصلت ، ويلى لأن باطنى ليس كظاهرى .
لهذا إن لم تشرق على رأفات الله سريعاً فليس لى من أعمالى ولا رجاء واحد للخلاص .
لأننى أتكلم على الطهارة وأفكر فى الفجور ، أنشئ أقوالاً على عدم التألم وفى موجود الهذيد فى الآلام النجسة ليلاً ونهاراً فأى اعتذار لى .

ويلى أى فحص قد أستعد لى بالحقيقة أن زى الديانة الحسنة موضوع على وليس فى قوتها .
بأى وجه أقدم إلى الرب الإله العارف مكتومات قلبى وأنا مديون بمثل هذه المساوى ؛ وأجزع أن أقوم فى الصلاة لئلا تتحدر على من السماء نار فتبيدنى ، لأنه إن كان الذين قَدَموا فى البرية ناراً غريبة خرجت من الرب ناراً فأحرقتهم فماذا انتظر أنا ، ومثل مقدار هذه الذنوب موضوع على ؟
فماذا هل أقطع رجائى من خلاصى ؟ حاشا . لأن هذا هو الذى يحرص عليه المضاد .
انه إذا أنحضر أحد إلى اليأس حينئذ يقبض عليه هو ، فأنا لا أياس من نفسى لأننى أثق برأفات الله وبتوسلاتكم ، فلا تفتروا إذا من التضرع إلى المتعطف لكى يعتق قلبى من عبودية الآلام المحترقة .

فقد عمى قلبى واستحال فكرى المتدين حسناً وأظلم ذهنى فرجعت وصرت مثل الكلب العائد إلى قيئه فليس ذهنى نقياً ، ولا دموع لى فى صلاتى ، إن تنهدت نشف ماء وجهى ، من الخزى أقرع صدرى فهو خزانة الآلام .

لك المجد أيها المحتمل ، لك المجد أيها المتمهل ، لك المجد أيها المتأنى على البشر ، لك المجد أيها المتعطف على الناس ، لك المجد أيها الصالح ، لك السبح أيها الحكيم وحدك ، لك المجد أيها المحسن على النفوس والأبدان .

لك المجد أيها المشرق شمس على الأشرار والأبرار ، والممطر على الصديقين والظلام ، لك المجد أيها المغذى كافة الأمم وكل الطبيعة البشرية مثل إنسان ، لك المجد أيها المغذى طيور السماء والوحوش والدواب والبرايا المائية مثل عصفور حقيقر .

لأن كافة البرايا تنتظر لتعطيها قوتها فى أوأنه لأن عظمة قدرتك ورأفاتك مسبوغة على سائر أعمالك .

^١ كتاب: مقالات مار إفرآم ملفان الكنائس السورية ومعلم الأرثوذكسيين أجمع
وقف على طبعه أحد رهبان دير السيدة العذراء البراموس فى بركة الأنبا مقاريوس
طبع سنة ١٨٩٢

فلهذا يارب أطلب ألا تطرحنى مع القائلين يارب يارب ولا يعملون مشيئتك ، بشفاعة كافة الذين أرضوك لأنك أنت تعرف الألام المكتومة فيّ وأنت خبير عالم بجراحات نفسى أشفيني يارب فأبرأ .
جاهدوا يا إخوة معى بالصلوات طالبين رافات خيرية الله ؛ ونفسى التى تمررت من الخطايا حلوها من الكرامة المحقة التى غصونها هى لكم ، اعطوا العطشان من ينبوع الحياة الذى قد أهلتهم لخدمته .

أنيروا قلبى يا من صرتم أبناء النور؛ أرشدونى أنا الضال إلى طريق الحياة يا من ثبتتم فيها ، أدخلونى فى الباب الملكى كما يدخل السيد عبده ، يا من قد صرتم للملك وارثين فإن قلبى قد أنسكب .
فلتدركنى بتوسلاتكم رافات الله قبل أن أجتذب مع عاملى الإثم فهناك تنكشف سائر الأفعال فى الظلمة وفى الجهر فأى شيء يدركنى إذا رآنى مديوناً ، أين الذين يقولون الآن أننى بلا عيب قد خلّيت الصناعة الروحانية وخضعت للألام .

لا أريد أن أتعلم وأشاء أن أعلم ، لا أريد أن أطيع وأشاء أن أطاع ، لا أختار أن أتعب وأريد أن أتعب ، لا أشاء أن اعلم وأشاء أن أشجع على العمل ، لا أشاء أن أكرم وأشاء أن أكرم .
لست أشاء أن أعير وأشاء أن أعير ، لا أريد أن أحتقر وأشاء أن أحتقر ، لا أريد أن يتكبر علىّ أحد وأشاء أن أتكبر ، لا أختار أن أوبخ وأشاء أن أوبخ ، لا أريد أن أرحم وأشاء أن أرحم ، لا أشاء أن أنتهر وأريد أن أنتهر ، لا أريد أن أظلم وأشاء أن أظلم .

لا أختار أن أضّر وأشاء أن أضير ، لا أريد أن أعتاب وأشاء أن أعتاب ، لا أشاء أن أسمع وأريد أن أسمع ، لا أشاء أن أمجد وأريد أن أمجد ، لا أشاء أن أمسك وأريد أن أمسك ، حكيماً فى الوعظ لكنى لست فى العمل حكيماً ، أقول ما يجب أن يعمل وأعمل ما لا ينبغى أن يقال .

من ذا لا يبكى علىّ ، أبكوا علىّ أيها الأبرار والصدّيقون أنا المضبوط بالألام ، أبكوا أيها المحبون النور والباغضون الظلمة على المحب لأعمال الظلمة لا لأفعال النور ، أيها المختبرون أبكوا على المنفى غير المختبر .

أيها الرحومون أبكوا على المرحوم والمفرط ، أيها الصائرون فوق كل مذمة أبكوا على الغريق فى الآثام ، أيها المحبون الخير والمبغضون للشر أبكوا على المحب للأفعال الخبيثة والمبغض للأعمال الصالحة ، أيها المتمسكون بالسيرة ذات الفضيلة أبكوا على الذى ترك العالم بالذى فقط .

أيها المرضون لله أبكوا على المرضى للناس ، أيها المقتنون المحبة التامة أبكوا على أنا الذى أحب قريبي بالأقوال وابعضه بالأفعال أيها المهتمون بأنفسكم أبكوا على المهتم بالأشياء الغريبة ، أيها المقتنون للصبر والمثمرون لله أبكوا على الغير صبور والعامد الثمر .

أيها المشتاقون إلى الأدب والتعليم أبكوا على الفاقد الأدب والمرفوض ، أيها المتقدمون إلى الله بلا خجل أبكوا علىّ أنا الغير مستحق أن أنقرس وابصر علو السماء ، أيها المقتنون وداعة موسى أبكوا علىّ أنا الذى أضعتها باختياري ، أيها المقتنون عفة يوسف أبكوا علىّ أنا الذى دفعتها وطرحتها ، أيها المحبون مسك دانيال أبكوا علىّ أنا الذى عدمتها باختياري .

يا من اقتنوا صبر أيوب أبكوا علىّ أنا الذى صار غريباً منه، يا من اقتنيتم مثل الرسل فى عدم اقتنائهم عدم القنية أبكوا علىّ أنا المبتعد منها بعيداً .

أيها المؤمنون والراسخ قلبهم فى الرب أبكوا على الضعيف النفس والجبان ، أيها المحبون للنوح والرافضون للضحك أبكوا على المحب للضحك والمبغض للنوح ، يا من حفظتم هيكل الله بلا دنس أبكوا علىّ أنا الذى قد دنسته ووخسته .

يا من يتذكرون الفراق والطريق التى لا عفو منها أبكوا على الغير ذاكر ولا مستعد لهذا السفر ، يا من تصورت فى عقولهم الدينونة التى بعد الموت أبكوا على المعترف بذكرها والفاعل ضدها ، يا وارثى ملكوت السموات أبكوا على وارث جهنم النار .

ويلى أنا الذى لم تترك فى الخطية عضواً صحيحاً أو حاسة لم تفسدها وأنا لا هم لى والموت على الأبواب قد وقف وأنا لا هم لى .

يا إخوتى هاأنذا قد كشفت لكم كلوم نفسى فلا تتوانوا فى أنا المتألم لكن اطلبوا من الطبيب فى أمر السقيم ، إلى الراعى من أجل الخروف ، إلى الملك من أجل الأسير إلى الحياة من أجل المائت لأنال الخلاص الذى يبسوع المسيح ربنا من الخطايا المطيفة بى .

ويرسل نعمته ويؤيد نفسى التى تزلق بسرعة ، فإنى مستعد لمقاومة الآلام وحين ملاحمتى إياها تحل رداءة حيلة الثعبان باللذة نفسى وتقيدنى مأسوراً وانشط أن أجذب المحترق فتطراً على حرارة النار فتجذبني إلى وسط لهيبها ، اطفر إلى استخلاص الغريق ومن عدم التدريب أغرق معه .

اشتهدى أن أصير طبيباً للآلام وأنا نفسى مضبوط بها وعضو المداواة أجرح من المريض ، أنا لم أزل أعمى وأروم أن أرشد العميان .

فلذلك أنا محتاج إلى صلوات كثيرة حتى اعرف قدرى ولكى تظللنى نعمة المسيح وتضى قلبى المظلم .

وتسكن فى عوض الجهالة معرفة إلهية ؛ لأنه لا يصعب على الله كل كلمة ، هو منح شعبه فى البحر الذى لا يسلك مسلكاً ، هو أمطر لهم المن ومن البحر أرسل لهم سلوى كرم البحر .

هو منح العطاش ماء من صخرة صلبة ، وهو وحده خلص بصلاحه الواقع بين اللصوص ؛ وبتحنن صلاحه يخلصنى أنا الواقع فى الخطايا المغلوب مثل مكبل بسوء الرأى ؛ فليست لى دالة لدى فاحص القلوب والكلى ولا يستطيع أحد أن يشفى وجع نفسى إلا هو العالم أعماق القلب .

كم من مرة وضعت فى ذاتى حدوداً وابتنيت حيطاناً بينى وبين الخطية المخالفة للشريعة ؛ وبين المعاندين الذين يخطرون من النتائج المضادة الخواطر للحرب فعبير ذهنى التخوم وهدم الحيطان لأن التخوم لم تكن لها قوة صائنة بخشية ممن هو أفضل من الكل والحيطان لم تأسس على التوبة الخالصة .

فلذلك اقرع الآن ليفتح لى؛ وألبس طالباً لأنال المطلوب كمن لا خجل له اطلب أن أرحم يارب ؛ أنت أيها المخلص قد وهبت لى خيريتك وأنا كافأتها بالمساوى ؛ تمهل على أنا الجافى فلست أسأل عفواً عن كلمات باطلة بل إنما اطلب من خيريتك صفحاً عن أعمالى التى لا بر فيها .

يارب جددنى من كل فعل خبيث قبل أن يدركنى الموت حتى أجد فى ساعة الوفاة نعمة أمامك لأن ليس فى الهاوية من يشكرك .

يارب خلص نفسى من المخافة المنتظرة وبيض حلتى المتسخة من أجل رافاتك وصلاحك لكى إذا سربلتني بالبياض أنا الغير مستحق أوهل لملكوت سمواتك وإذا حصلت فى السرور الذى لا ينقرض أقول : المجد لمن أستخلص نفساً مغمومة من فم السبع وجعلها فى جنة النعيم .

لأن لك المجد أيها الإله الكلى القداسة . آمين